الخطاب الصوفي بين جدلية التأويل ومفارقة الأنساق *

The Sufi discourse between dialectic interpretation and paradox of formats

سوهيلة بن عتسو
جامعة عبد الرحمن ميرة- بجاية- (الجزائر)
(مخبر التأويل وتحليل الخطاب - بجاية - الجزائر)
souhilabenatsou16@gmail.com

ملخص : يعتبر الخطاب الصوفي العربي القديم أحد أهم تجليات الحضارة الإسلامية عبر التاريخ، وذلك نظرا للأبعاد الروحية والوجدانية والدينية والجمالية والثقافية التي يحملها في مضامينه المختلفة، والتي تتميز بحمولة جدلية مفارقة لخطابات السلطة الدينية والثقافية الرسمية السائدة.

إن البحث في العلاقة الموجودة بين الخطاب الصوفي ومتلقّيه عصر ظهوره، والعلاقة الموجودة بينه وبين الثقافة السائدة آنذاك ، مسألة لا بد منها للكشف عن مجموعة من الأنساق الثقافية المضمرة التي يحملها ذلك الخطاب في أعماقه، والتي تجلّت لنا خصوصا في فكر ابن عربي والحلاج وخطابهما، لتكشف لنا إجرائية البحث عن أفق التلقي المعاصر للخطاب الصوفي فترة ظهوره، ثم الكشف عن نسقين ثقافيين مهمين هما: الظاهر/ الباطن، الكفر/اليقين.

الكلمات المفتاحية : الخطاب الصوفي، التأويل، التلقي، الأنساق الثقافية، اللغة، الرمز.

Abstract : The Sufi discourse is one of the most important characteristics of the Islamic civilisation, because of its spiritual, emotional, religious, aesthetic, and cultural dimensions that are contained in its components, that represent a dialectic paradox of the religious authority and the existing culture. Dealing with the relationship between Sufi discourse and the receiver from one side, and between it and the existing culture from the other is quite important for revealing the cultural formats that are embodied in that discourse. It also appeared in the discourse of both Ibn Arabi and El Halledj, to make clear the manner of receiving the Sufi discourse of nowadays, and reveal to cultural formats that are the deep / surface, disbelief / certainty.

Keywords : Sufi discourse, interpretation, reception, cultural formats, language, symbol.

تاريخ استلام البحث: 12/ 2021/06	تاريخ قبول البحث: 2021/09/04	تاريخ النشر:15/ 2021/10

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة:

التصوف نزعة فلسفية فكرية وإنسانية بالدرجة الأولى تعاقب ظهورها في مختلف الحضارات والدّيانات بصور مختلفة، وهي نزعة تعني في جوهرها الزهد في الدنيا والابتعاد عن ملذاتها والدخول في مجال التقوى والورع للسمو بالروح إلى أعلى مراتب النقاء وتحقيق الايمان اليقيني بالله.

ارتبط التصوف في الحضارة الإسلامية بالقرنين الثاني والثالث للهجرة أين بلغ أَوَجَّهُ، هذا بالرغم من أن هناك إشارات إلى أن التصوف ظهرّ قبل ذلك مع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إذ تقول "أنا ماري شميل" (محمد هو على رأس رجال الصوفية، وقد أصبح عروجه إلى الحضرة الإلهية مسطرا نصا في سورة الإسراء، وتأويلا - في نظر الصوفية – في سورة النجم مثالا يحتذى في صعود الصوفي بروحه إلى جانب الذات الإلهية، وقد جاء في الأثر أن الحكمة المحمدية انتقلت من بعد النبي إلى ابن عمه وزوج ابنته ورابع الخلفاء الراشدين علي بن أبي طالب، وقد نُسب إلى آخرين من أهل بيته وأصحابه أنهم كانوا موهوبين في الكشف الصوفي)[1] .هكذا تأثر بهم المتصوفة الذين أتوا بعدهم، واستمدوا معظم تعاليمهم من القرآن والسنة، فكانت الآيات القرآنية والأحاديث مرجعا مهما يعتمد عليه المتصوفة في نهج مذهبهم، وهذا أشار إليه ماسينيوس في كتابه "التصوف".

أنتج المتصوفة المسلمون متنا سرديّا ضخما، يجسد فلسفتهم وأفكارهم ونوازعهم في الحياة هذا المتن السردّي الصوفي يحمل في طياته معان متعددة تسمح لنا بالوصول إلى قراءات مختلفة اعتمادا على مناهج نقدية متباينة (كالبنيوية، والتداولية، والسميائية، ونظرية التلقي أو التواصل...) بعضها عمل على استجلاء المظاهر الداخلية لبنية الخطاب الصوفي أو العمل على رصد العلاقة بين الخطاب ومتلقيه عصر ظهوره، في حين عمل البعض الآخر على اسقاط أحكام ايديولوجية مع تأويل ذاتي يخضع لطابع أخلاقي تمليه السلطة الدينية.

في دراستنا هذه ارتأينا أن نخوض في جانب آخر من جوانب الخطاب الصوفي وهو المسكوت عنه والمغيب والذي لم يتم الخوض فيه بعد، باعتبار أن الخطاب الصوفي خطابا مهمشا تم إقصاؤه من طرف السلطة الدينية والسياسية المهيمنة لأنه يتعارض مع الأسّس التي تفرضها والقيود التي تحدد بها معايير القبول أو الرفض، وهذه المعايير يتعارض معها الصوفي لاختلافه في الرؤية والطريقة أو الوسيلة التي حددّتها السلطة الدينية لمعرفة الله، والتي تتنافى مع المعرفة والتجربة والتعبير الصوفي عن علاقته بالله، والنظر في علاقة الخطاب الصوفي بمتلقيه في خضم هذا الإقصاء والتهميش الذي عانه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من طرف الثقافة السائدة، فما سبب هذا التهميش؟ وفيم تكمن هذه العلاقة الجدلية بين الرقابة السلطوية والخطاب الصوفي يا ترى؟

قبل أن نكشف عن علاقات التلقي، وعن المسكوت عنه في الخطاب الصوفي، أردنا أن نشير إلى النقد الثقافي في مجال الدراسات الأدبية والنظر في ماهية نظرية التلقي وفي بعض طروحاتها التي فتحت مجالات جديدة للنقد الأدبي.

(1) الأليات الإجرائية للبحث:

(أ) النقد الثقافي:

يُعدّ الأمريكي " فنيست ليتش V.B LEITCH" من أبرز النقاد الغربيين الذين حدّدوا مصطلح النقد الثقافي في مرحلة ما بعد البنيوية، هذه الفترة التي نشأ فيها الاهتمام بالخطاب على أنه خطاب، وهذا ليس تغييرا في مادة البحث فحسب ولكنه أيضا تغييرا في منهج التحليل، يستخدم المعطيات النظرية والمنهجية في السوسيولوجية والتاريخ والسياسة والمؤسساتية من دون أن يتخلى عن مناهج التحليل الأدبي النقدي[2].

إنه اتجاه نقدي جديد تبنته دراسات ما بعد البنيوية (دراسات ما بعد الحداثة)، التي أعلنت الانقلاب على كل المؤسسات السلطوية التي تمجد المركز وتعلي من صوت الآخر، والنقد الثقافي أحدث نقلة نقدية نوعية تنتصر لكل ما هو هامشي مضمر في النصوص الأدبية، والابتعاد عن النقد الأدبي الذي يهتم بالكشف عن الجماليات وفقط، فهو يعمل على (مجاوزة النص بمفهومه التقليدي واعتباره مادة خام تستخدم لاكتشاف أنماط معينة من الأنظمة السردية والإشكاليات الايديولوجية وأنساق التمثيل، وكل ما يمكن تجريده من النص)[3].

عرفه "عبد الله الغذامي" رائد النقد الثقافي في الوطن العربي، أنه (فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول (الألسنية) معني بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء، وهو بذلك مهيمن بكشف لا الجمالي كما هو شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي الجمالي)[4]، إنه نقد يبحث فيما وراء النص بغية الكشف عن المضمر والمسكوت عنه واللامقول، وهو يعمل على رصد الأنساق الثقافية المتوارية في عباءة الجمالي المتعالي،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويشكل "النسق" أهم المقولات الاجرائية التي يعتمد عليها "النقد الثقافي" في قراءته للنصوص، و(النسق ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة ولذا فهو خفي ومضمر وقار على الاختفاء دائما (...)، وعبر البلاغة وجماليتها تمر الأنساق آمنة مطمئنة من تحت هذه المظلة)[5]، لا يكون النسق إذن ظاهراً وعلنيا بل يتطلب البحث عنه الخوض فيما هو بلاغي وجمالي للكشف عما هو مضمر ومتوار، إذ إنه في النص الواحد يوجد نسقان أحدهما ظاهر والثاني مضمر يحاول تمرير حيل الثقافة التي تعارض أنساق الثقافة السلطوية السائدة، وذلك من أجل الإفلات من رقابتها وعقابها.

انطلاقا مما يتيحه النقد الثقافي من مفاهيم تساعد في الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة، عمدنا إلى قراءة "الخطاب الصوفي" والبحث فيه عن بعض الأنساق المتوارية وذلك باعتباره خطابا جدليا معترضا لمعطيات السياق الثقافي السائد عصر ظهوره، وبيقوم بخلق تصور جديد مناقض لأصناف التلقي التي كانت سائدة من قبل.

(ب) نظرية التلقي (أفق الانتظار):

وأصناف التلقي، والمتلقي بدوره هي طروحات أفرزتها نظرية القراءة أو جمالية التلقي التي تعتبر نظرية نقدية ظهرت في نهاية الستينات من القرن العشرين، تُحاول ردّ الاعتبار لعنصر فعال و مهم في العملية التواصلية بصفة عامة والأدبية بصفة خاصة. إنها وليدة جامعة "كونستانس الألمانية" على يد كل من "فلفغانغ آيزر Wolfgang Iserوهانس روبرت ياوسHans Robert jaus "، هذه النظرية التي كانت كردّة فعل على التيارات النقدية السياقية والنسقية التي تناست دور القارئ وأهميته في العملية النقدية واعتبرته مجرد منتج ومستهلك.

طرح "هانس روبرت ياوس" مجموعة من الآليات والأدوات التي قارب من خلالها دور المتلقي في العملية الإبداعية، محدداً شروط تلقيه للنص الأدبي، من بين هذه الآليات "أفق التوقع أو أفق الانتظار L'horizon d'attende", إنه مفهوم جديد للرؤية التاريخية في تفسير الظاهرة الأدبية وتأويلها، ويتم بفضله التمييز بين تلقي الأعمال الأدبية في زمن ظهورها وتلقيها في الزمن الحاضر مروراً بسلسلة التلقيات المتتالية[6].

أشار "ياوس" إلى أن مفهومه "أفق التوقع" يتضمن ثلاثة عوامل أساسية:

أولها – التجربة المسبقة التي اكتسبها الجمهور عن الجنس الذي ينتمي إليه النص.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيها – شكل الأعمال السابقة وموضوعاتها التي يفترض معرفتها.

ثالثها – التعارض بين اللغة الشعرية واللغة العلمية أي التعارض بين العالم المتخيل والواقع اليومي[7].

استثمرنا مقولة "أفق الانتظار" في بحثنا من أجل أن نكشف عن العلاقة بين الخطاب الصوفي ومتلقيه عصر ظهوره، فكيف عمل هذا الخطاب على كسر ذلك الأفق وبالتالي تحقيق القيمة الجمالية المرهونة بمدى تَخْيِيب أفق توقعات القارئ؟ ذلك ما فعله الخطاب الصوفي الذي خيب أفاق قراء العصر الثاني والثالث والرابع للهجرة وما والاها من العصور، هذا نظرا لما يحمله من خصوصية جعلته يتميز عن مجموع خطابات الثقافة الرّسمية، وحقق قيمة فنية جمالية، وفكرية حسية، باعتباره يغوصُ في حقائق الذات الإنسانية من أجل فهم الذات الإلهية، طبعا هذا الكسر في أفق التوقع أو الانتظار كان وليد عملية التأويل التي انتهجها القارئ عند قراءته لهذا الخطاب المثير للجدّل كما سبق وأن قلنا.

(2) ماهية الخطاب الصوفي:

يمثل الخطاب الصوفي بكل أنواعه (شعر، نثر، حكايات) أسمى تجليات الأدبي العربي، نظرا لما يحمله من أساليب تعبيرية وقوالب لغوية رمزية تفضي إلى دلالات توليدية وتفتح آفاق لمعان كثيفة، تخوض في الكلام عن العلاقة بين الذات الإلهية وصلتها بالذات الإنسانية بكيفيات متعمقة وبإسراف في التعامل مع المقدّس (الله تعالى، القرآن الكريم، الرسول صلى الله عليه وسلم، السنة النبوية)، الذي يفرض ويتطلب الحذر أثناء التعامل معه.

يمثل الأدب الصوفي بصفة عامة (نثره وشعره) قمة البلاغة وعمق الصدق وحرارة المشاعر (هو أدب حافل بالروح والبلاغة والفكر الحي المتجدد والوازع الديني القوي والبناء، أدب يصدر عن نفوس إنسانية استغرقها الحب، وملأت جوانحها لوائح الأشواق وتمثلت به الحُداة والرواة في كل مكان، أدب عميق صادق يحكي التجربة الحية التي عاشها هؤلاء الصوفيون بين الحلم واليقظة وبين الأمل والألم، وبين المحن والمنح، وبين حرّ العبارات وبرد النشوات)[8]، إنّه أدب يتميز بقوة التصور والتصوير، وبلاغة اللفظ والتعبير وغرابة الرمز والإشارة والخيال، أدب يشتغل على النص الديني (القرآن، السنة) الذي يعتبر أساس السلطة، لكن بطرق مغايرة ومفارقة لخطابات الثقافة الرسمية التي يمثلها (رجال الدين، الفقهاء، علماء الكلام، المفسرين...)، وذلك سعيا منه لتأسيس

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نمط جديد في التفكير والقول، متنكرا للقيود والأغلال التي تُفرض على المتعامل مع القضايا الدينية بصفة عامة.

يتميز الخطاب الصوفي بالعمق الجدّلي، وذلك نظرا للقضايا التي يطرحها والتي أحدثت خللاً على مستوى الأفق الثقافي السائد. إنّه يعرف (نخطاب سلطة يقوم على خاصيتين أساسيتن:

- إنه خطاب جدلي يقوم على الاعتراض على سلطة دينية مهيمنة يمثلها الفقهاء وعلماء الكلام والباطنية، ويعمل على كشف تناقضاتها ومزالقها وحدودها.
- إنه خطاب تأسيسي يتوالى تشييد تصور جديد للتلقي متميز عن أصناف التلقي الأخرى[9].

الخطاب الصوفي يملك خصوصية تجعله يتميز عن مجموع خطابات الثقافة الرّسمية، ويحقق قيمة فنية جمالية وفكرية حسية باعتباره يغوص في حقائق الذات الإنسانية من أجل فهم الذات الإلهية.

(3) **خصائص الخطاب الصوفي:**

إن أول الخصائص التي كشفنا عنها ونحن بصددّ البحث في هذا الخطاب المثير للجدّل هي المفارقة التي تجعله يتماشى ويتنافى وأحكام الشريعة في الوقت نفسه، فالخطاب الصوفي يقوم على مجموعة من القواعد تتماشى مع تعاليم الدّين وتساير أحكام الشريعة بشكل غامض مبهم، يتم الكشف عن هذه القواعد من خلال الغوص في أعماق وباطن هذا الخطاب وهي:

- صفاء النفس ومحاسبتها.
- قصد وجه الله.
- التمسك بالفقر والافتقار.
- تعطين القلب على المحبة والرّحمة.
- التجمل بمكارم الأخلاق التي بعث الله بها النبي لإتمامها[10].

لكن قارئ هذا الخطاب لا يستطيع أن يكشف عن هذه القواعد إلا إذا تمكن من اللغة الرمزية التي يحملها، واستطاع أن يفُكُ شفرتها ويحُلَّ أقفالها، وإن كان وعيه بهذا الخطاب ظاهريا وسطحيا فإنه يدخل في متاهات عدم الفهم وبالتالي إطلاق أحكام غيبية تصل في بعض الأحيان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إلى حدّ التكفير، هذا ما يستلزم معرفة جدّية وعميقة بهذا الخطاب الذي (يعكس ذلك التناقض الذي يُوحي بالقوة الحيوية للقصد الأدبي والتي قطباها وعي الكتابة والقراءة معاً)[11]، فالقارئ يجب أن يملك وعيا جدّيا، وذكاءًا خارقا، ومعرفة واسعة بقواعد الكتابة الصوفية ورموزها ودّلالاتها الموحيّة، لكي يصل إلى تحقيق القراءة الواعية التي تنتج أحكاما عادلة لا تدخل في دائرة الإلغاء والتغييب.

اللغة:

ثاني الخصائص التي يتفرد بها الخطاب الصوفي عن غيره هي القالب اللغوي المثير للجدّل، إنه يتشكل وفقا لنظام رمزي يتجسد من خلاله الغموض الذي يفضي إلى إنتاج لغة لا عادية، تتعمق إلى أعماق النفس الصوفية، لكي تعبر عن الجوانب المبهمة والمسكوت عنها إذ (لغة الصوفي هي باطنية سرّية، وهي شأن جميع الأشياء السّرية الباطنية التي لا يمكن فهمها بمنطقها هي، بل بمنطق الباطن وحقائقه وأبعاده المختلفة)[12]، حيث يتم استعمال ألفاظ ترمز إلى مدلولات خاصة بهم (المتصوفة) غير تلك التي تعارف عليها الناس في السياق الاجتماعي لذلك يصعب تحديد العلاقة بين الدّال ومدلوله في كلام المتصوفة للوصول إلى مقاصده.

إن الغرض من هذه اللغة المبهمة والغامضة هو اتِّقَاء سطوة العامة وتفادي إكراهات السلطة – هذا من جهة – ومن جهة أخرى فإن أراد المتصوف من خلال لغته أن ينسلخ عن الوجود وينفذ إلى ما وراء المألوف والمعتاد، فإنه سينطلق من لغة ومصطلحات موجودة إلى مفاهيم ودلالات متعالية تمنح للمتصوف التحرّر والوصول إلى مرتبة الوجود الفعلي، حيث الفناء المطلق.

هذه اللغة اللامألوفة المشحونة بمالعاني والدلالات رمزية (تحمل إشارات على عدد لا نهائي من المشيرات والمضامين)[13] تفتح أمام المتلقي سُبُل التأويل اللانهائي في سبيل الكشف عن الأسرار المكتومة والقبض على المعاني المرجَأة.

(4) غموض المعنى / تعددية التأويل:

يقوم الخطاب الصوفي بصفة خاصة والفكر العرفاني في العالم الإسلامي بصفة عامة على تأوُّل النص القرآني والعالم الوجودّي، ذلك أفضى إلى إنتاج نصوص أخرى باطنية تسعى إلى تأويل الوجود عن طريق الإبحار في كل ما هو مجهول وغامض، وهذا الإنتاج يقترن في جميع أشكاله

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالحالة الروحية والجسدية التي يمرُّ بها الصوفي عندّما ينسلخ روحه عن العالم الحسي (عالم الموجودات) للارتقاء إلى عالم السمو والعلو، وهذه النصوص (نصوص المتصوفة) تحتاج بدورها إلى تأويل من أجل فهمها والوصول إلى معناها.

جاء في المعاجم اللغوية بصفة عامة في مادة "أولَّ" التأويل هو الرجوع إلى الشيء، وفي لسان العرب (أولّ الكلام وتأوله... دبره وقدره... والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما تُرك ظاهر اللفظ)[14]، أما حديثا فقد تطور مدلول التأويل ليصبح نظرية عامة في الفهم (استخدمت هذه النظرية في الغرب تحت مصطلح "الهيرمينوطيقا" للدّلالة على نظرية التأويل التي تعني المبحث الخاص بدراسة عمليات الفهم وبخاصة فيما يتعلق بتأويل النصوص)[15]، ويقول "ابن عربي" (ما في الكون كلام لا يُتأوَل)[16].

وعليه تأتي القراءة التأويلية للنص الصوفي باعتباره نصا غامضا لا يحمل دلالة جاهزة ونهائية، بل هو فضاء لا نهائي من المعنى يحمل إمكانا تأويليا منفتحا، يجد قارئ الخطاب الصوفي نفسه مكبلا بعبء الدّلالة اللامنتهية التي تبقى في حالة سكون وسكوت إلا بعد اتخاذ القارئ القراءة العميقة عن طريق تأويل الظاهر اللفظي، ويكون دائما في حالة عدم إدراك للمعنى الحقيقي وذلك بفعل (البعد الخاص (المغلق) المحصور بين الصوفي ونصه بقوة الموقف، وهو بعد ذاتي خاص، وموقف حلولي بحت بغض النظر عن قبول هذا الموقف أو رفضه فإنه لا يمكن اقتحامه إلا بالتأويل(...) لكي لا يبقى النص/الخطاب الصوفي بعيدا عن القراءة المعرفية)[17].

(6) الخطاب الصوفي وكسر أفق الانتظار:

خلق الوضع السياسي، والاجتماعي، والديني الذي ساد في المجتمع الإسلامي في القرن الثالث للهجرة، أزمة تلق في كل المجالات، ذلك القرن الذي (كان يحيا ظواهر معقدّة في الفقه وعلم الكلام والتصوف والشعر، وهذا التعقد من شأنه أن يحُدث التصادم والإلغاء، لأنه لم تكن هناك نظرة نسقية فكل كان ينظر من مكانه إلى الآخر)[18].

والخطاب الصوفي بصفة عامة يتعارض مع أفق المتلقي وأفق النص السائد في تلك المرحلة الزمنية، التي كان يرتبط بها كل شيء بالسلطة الدينية وأحكام الشريعة الإسلامية التي وضعت معايير صارمة تحكم بها على كل إبداع، ومن خلالها تم إدخال بعض نصوص المتصوفة في دائرة الكفر والإلحاد والزندقة والتآمر على الدّين، وعدّ صاحبها المتصوف من أهل الهوس وممن ضعفت

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عقولهم[19]، وهذه المراقبة جعلت من بعض المتصوفة يوفقون بين أفق نصوصهم وبين الوضع السائد في تلك المرحلة مثل الجنيد وتلاميذه، في حين نجد (أن البعض الآخر عرّضهم تصادّم الأفقين إلى محن نجوا منها فيما بعد كالنوري، وأبي حمزة، وذي النون المصري، أما الأمر مع الحلاج فقد كان مختلفا لأنه لم يسهم في تعارض الآفاق فحسب، وإنما كان المتصوف الوحيد الذي فضح افتعال صور الاختلاف والتعارض)[20]، وهذا ما جعل الحلاج ينفرد بأفق مغاير وذلك لما طرحه من فكر يعمل على خلافة السياق المعهود لعلاقة الإنسان بالله وبالتالي تكسير دائرة التلقي.

فكما نعرف جميعا أن الحلاج يعتبر شخصية تاريخية مثيرة للقلق والجدل ونقطة حاسمة في تاريخ الفكر الصوفي، نظرا لطروحاته وأفكاره التي تتنافى مع ما جاء به الشرع الإسلامي، إن الحلاج تَصادم أفق خطابه مع أفق العامة من الناس والخاصة من المتصوفة الذين طردوه من عنايتهم وأخرجوه من ملتهم، وذلك لحديثه عن قضية "الفناء والحلول" التي تخالف الشريعة الإسلامية، ثم كشفه لأسرار المتصوفة التي احتفظوا بها لأنفسهم، وعلى إثر هذا نسج له رجال الخليفة العباسي مؤامرة انتهت بالإفتاء على إقامة حدّ القتل عليه بعد اتهامه بالكفر والزندقة، من خلال تذوقهم لظاهر النص وإغفالهم عن باطنه.

(7) الخطاب الصوفي والأنساق الثقافي:

الخطاب الصوفي كما سبق وأن أشرنا هو خطاب جدالي يقوم على مفارقات دلالية تمنح له تعدّد التأويل وإمكانياته اللامتناهية، وهذا يجعله أيضا خطابا مضمرا يحمل في طياته أنساق ثقافية تُمثله وتمثل السياق الذي وُلد فيه وينتمي إليه.

(أ) الكفر/اليقين:

أولُ الأنساق التي كشفنا عنها ونحن بصدد دراستنا لهذا الخطاب المهمش الذي تم إقصاؤه من دائرة الخطابات المعترف بها من طرف السلطة، هو نسق الكفر / اليقين. إن النسق الظاهر على المستوى السطحي والذي من خلاله تم إدانة خطابات الصوفية وفكرهم وتصوراتهم هو نسق الكفر، وذلك اعتمادا على التأويل السطحي لأقوالهم الشعرية والنثرية دون معرفة الرموز المستعصية على الفهم، التي أحكموا بها إغلاق كتاباتهم والاحتفاظ بمعانيها لأنفسهم.

ولعلنا نجد أن أهم القضايا التي تم من خلالها تكفير الخطاب الصوفي هي فكرة "وحدة الوجود" وفكرة "الحلول"، لأن (لوحدة الوجود معنيين متناقضين: الأول بمعنى حلول الخالق بالمخلوق وهو كفر

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صريح، والثاني بمعنى أن الوجود كله لله وبالله أي بإيجاد الله تعالى وهو المعنى الصحيح)[21]، وهذه الفكرة شرحها ابن عربي في "رسالة كشف السرّ لأهل الستر" قائلا أن (الوجود واحدٌ، أحدٌ في المدد، كثير في العدد)[22] وهو يعني بقوله هذا أن خالق الموجودات واحد هو من مدد الله تعالى، وأن هذه الموجودات كثيرة ومتعددة إلا أنها وجدت بإيجاد الله تعالى لا بذاتها[23]، هذه الفكرة تم إنكارها على الصوفي وبها تم تكفيره بسبب إساءة فهم المقصود بوحدة الوجود والاعتماد على المعنى الظاهر دون الباطن.

كما أنه تم تكفير المتصوفة من طرف السلطة المعارضة بسبب فكرة "الحلول"، والحلول يعني الاتحاد والامتزاج النفسي بين النفس الانسانية وبين ذات الإله، أي حلول نفس الإنسان في نفس الله، وحلول نفس الله في نفس الإنسان، هكذا أوّلها معارضو الخطاب الصوفي الذين كفّروا "الحلاج" صاحب هذه الفكرة "الحلول" والذي يقول فيها:

(عَجِبْتُ مِنْكَ وَمِنّي يَا مِنيةَ المُتَمَنِي
أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَى ظَنَنْتُ أَنَكَ أَنِّي
وَغِبْتَ فِي الوَجْدِ حَتَى أَفْنَيْتَنِي بِكَ عَنِي)[24]

واستنادا إلى هذه الفكرة اشتدت معارضة الصوفي وتهميشه في المجتمع وإدخاله دائرة الكفر والخروج عن الملّة، وعدم الخضوع للسياق الديني والسياسي السائد في تلك الفترة، إذ قيل عن ابن عربي إنه (قال أشياء عدّها طائفة من العلماء مروقا وزندقة، وعدها طائفة من العلماء من إشارات العارفين ورموز السالكين وعدها طائفة من متشابه القول وأن ظاهرها كفر وباطنها حق وعرفان)[25]، إن هذا الحكم (التكفير) الذي اتُخذّ في حق المتصوفة وهذا الإلغاء الذي قام يتغييب فكر هام في الثقافة العربية الإسلامية، كان سببه عدم الفهم العميق لمعاني ودلالات الخطابات الصوفية، هذا بالرغم من أن هناك من المتصوفة ممن أشاروا بشكل مباشر إلى تمسكهم بالعقيدة، بل عَدُّوا أنه من شروط بلوغ اليقين وهو النسق المضمر المناقض للكفر، الذي يقوم على العمل بأحكام الشريعة والأخذ بها بدون شك وبدون وساطة، حيث يقول أحد رجال الصوفية: (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث، لم يُقتَد به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة)[26].

إن اليقين كنسق ثقافي مضمر هو أقصى درجات الإيمان تم بلوغه من طرف المتصوفة، وهو (استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يحول ولا يتغير في القلب، وقد قال فيه الجنيد: ارتفاع الريب في مشهد الغيب، وفي قوله: ارتفاع الشك)[27]. إنه الايمان المطلق الذي لا يحتمل الرّيب ولا الشك.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنه الفناء في الحب الإلهي والاستغراق في رؤية الجمال الكوني، بعيدا عن أي غرض أو غاية، وترفعا عن طلب الأجر أو المغفرة خلافا لما يعمل عليه بعض الفقهاء ورجال الدّين، ومن صور هذا الحب الصافي ما قالته رابعة العدوية (أنها لا تعبد الله خوفا من ناره ولا طمعا في جنته، كما تتأكد هذه الفكرة عند الحلاج خاصة، حين راح يعلن أنه لا يحب الله طمعا في ثوابه ولا خوفا من عقابه بل للعذاب الذي يستمتع به فقال:

أُرِيدُكَ لَا أُرِيدُكَ للثواب وَلَكِنّي أُرِيدُكَ لِلعَقَاب
فَكُلّ مآربي قَدْ نِلتُ مِنْهَا سَرَّى مَلْذُوذُ وَجْدِي بِالعَذَابِ)[28].

وهذا ما أحدث مفارقة عميقة بين ما يحمله الخطاب الصوفي من مقاصد وما يدعو إليه الدّين الإسلامي من أفعال ومعاملات وعبادة، وذلك ما حصر المتصوفة في دائرة ضيقة وأدخلهم عالم التغييب والتهميش الذي فرضته السلطة السائدة.

وهذا التغييب كان سببه الأخذ بظاهر القول وعدم فهم الباطن منه، وما هو معروف عن المتصوفة أنهم يُؤسسون فكرهم على باطن الشريعة الذي لم يفهمه العامة من الناس، هذا الباطن الذي يمثل جوهر الإيمان (فلا باطن بدون ظاهر، ولا حقيقة بدون شريعة، بل الظاهر والشريعة أولا وقبل كل شيء، ثم الباطن والحقيقة مؤسسة على الشريعة)[29].

(ب) الظاهر/ الباطن:

تعتبر قضية الظاهر / الباطن من أهم القضايا التي طُرحت في فكر المتصوفة وفي خطاباتهم الأدبية، إنها تعتبر من أهم الأنساق الثقافية التي تم من خلالها محاكمة هذه الخطابات من طرف السلطة المعارضة التي اهتمت بظاهر القول وأهملت باطنه، بخلاف المتصوفة الذين اهتموا بباطن القول وأهملوا الظاهر وأشاروا أيضا في خطاباتهم إلى أهمية الجانب الباطني سواء في خطابهم أو في الخطاب الديني الذي يفكرون فيه.

إن المقصود بـ"الظاهر" هو كل ما يدل على الخطاب بدلالة اللغة الوضعية في بعدها الإنساني، من حيث إن "الباطن" هو المستوى الأعمق، مستوى اللغة الإلهية المشار إليه بطريقة لا تنكشف إلا لصاحب التجربة الصوفية[30]، ومنه فالمنظور الذي تم من خلاله التعامل مع هذا الخطاب الصوفي هو الظاهر لعدم امتلاك القدرة الكافية لبلوغ معاني وأعماق الباطن التي تُعتبر حكرًا على المتصوفة أنفسهم، والذين جمعوا بين ظاهر العبارة وتجاوزوها إلى باطنها، فهذا الخطاب يحمل أبعادًا ميتافيزيقية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

باطنية، خُلقت في سبيل الانفلات من الضغوطات الايديولوجية التي يمارسها الفقهاء و رجال الدين، ومن الرقابة الاجتماعية التي تفرضها السلطة، فابن عربي أشار إلى تضمين معان باطنية وراء ما هو ظاهر في أشعاره وذلك في قوله:

(كُلُ مَا أَذْكُرُهُ مِنْ طَلَلٍ أَو رُبُوعُ أَو مَعَانِي كُلَمَا
أَو نِسَاءٍ كَاعِبَاتٍ نَهْدٍ طَالعَات كسُنُوسٍ أَوْ دُمَا
كُلُ مَا أذْكُرُهُ مِمَا جرى ذِكْرُهُ أَو مِثْلَهُ أَنْ تَفْهَمَا
مِنْهُ أَسْرَارٌ أَو أَنْوَارٌ جَلّتْ أَوْ عَلَتْ جَاءَ بِهَا رَبّ السّمَا
فَاَصْرِفْ الخَاطِرَ عَنْ ظَاهِرِهَا وَاطْلُبْ البَاطِنَ حَتَى تَعْلَمَا)[31].

إنه يعترف في هذه الأبيات أنه على المتلقي أن يبحث فيما وراء الظاهر لأن المقاصد الحقيقية تكْمن فيما هو باطني، وهو الذي يتعلم منه ويأخذ به القارئ متجاوزا اللغة العرفانية الإنسانية في محدوديتها واصطلاحيتها إلى إطار اللغة الإلهية في إطلاقها ودلالتها الذاتية، ولا يعني تجاوز الظاهر وإنكاره، بل يعني البدء به لأنه غطاء الباطن وقشرته الظاهرة[32]، والباطن عند المتصوفة هو عالم الحقائق الذي يتم بلوغه بامتلاك البصيرة أو عن طريق الكشف أو التعرف، وعن طريق الصفاء الروحي الذي لا يتم بلوغه إلا ببلوغ المنزلات الروحية لدّى المتصوفة، وفي هذا المقام يقول ابن عربي عن القائلين بالمعنى الظاهري للخطاب دون بواطنه (واعلم أن الظاهر يسري في الباطن، وليس الباطن أمر مشروع يسري في الظاهر، بل هو مقصور، فإن الباطن معان كلها، والظاهر أفعال محسوسة، فينتقل من المحسوس إلى المعنى، ولا ينتقل من المعنى إلى الحس، فالكامل من أهل الشرع هو الذي أحكم العلم والعمل، فجمع بين الظاهر والباطن، والناقص منهم الفقهاء الذين يعلمون ولا يعلمون ويقولون بالظاهر ولا يعرفون الباطن)[33].

إن المفارقة التي تجمع بين الظاهر والباطن في الخطاب الصوفي وتُفرق بينه في الوقت نفسه، طرحت خطابا مغايرا لما هو شائع من التصورات وسط السياق الثقافي السائد في عصرهم، سواء ما يتعلق بالجانب السلطوي الدّيني أو الجانب البلاغي الإبداعي السائد فترة ظهوره، فهو قد تعدّى حدود الثقافة الرّسمية (الحقائق المعروفة التي أقرَّها الشرع والفقه وما يتعلق بأسس التعامل مع المقدس)، وتجاوز قوانين ومعايير الخطاب المتداول عن طريق الرمز والإشارة والإيهام (فالرمز معنى باطني مخزون تحت كلام ظاهر، لا يظفر به إلا أهله)[34]، فهو يتميز بالغموض الذي يدخل

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المعاني في حالة الإرجاء الدّلالي لاختراقها الظاهر إلى الباطن، ذلك (ليسمح بإقامة لحظات للتأمل والبحث عن المسكوت عنه واللامقول فيه)[35].

خاتمة:

إن البحث في الخطاب الصوفي ومحاولة تطبيق مفاهيم نظرية التلقي وبعض فرضيات النقد الثقافي، أفضى بالدّراسة إلى نتائج مغايرة عما حققته الدّراسات النسقية والسياقية التي تهتم بالظروف الداخلية البنائية والسياقية الخارجية للنص.

سمحت لنا الدّراسة بالكشف عن العلاقة بين المتن الصوفي وبين متذوقيه خاصة عصر ظهوره، ثم أفضت عما سكتت عنه رمزية خطاباتهم التي تخوض صراعا جدليا مع السلطة بمختلف أشكالها، وبينت لنا خصوصية هذا الخطاب الذي يحمل مفارقات كشفت لنا عن أنساق ثقافية مضمرة منها نسق الكفر / اليقين، نسق الباطن / الظاهر. هذه الأنساق يمكن أن تكون مدخلا لدراسة مفصلة وموسَّعة، تخوض أكثر في استقراء الأنساق الثقافية المضمرة في ثنايا الخطاب الصوفي.

---

[1] - آنا ماري شميل: الأبعاد الصوفية في الاسلام وتاريخ التصوف، تر: محمد اسماعيل السيد ورضا حامد قطب، منشورات الجيل، ط 1،بغداد، 2000، ص: 245. نقلا عن: عبد الرحمان قاسم "أصالة الخطاب الصوفي الاسلامي"، مجلة الخطاب الصوفي، ع 6، جامعة الجزائر 2، ص: 63.

[2] - ينظر: سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، مرا وتق: سمير الشيخ، الكتب العلمية، د. ط، بيروت، لبنان،د. ت، ص: 303.

[3] - عبد الله الغذامي: النقد الثقافي "قراءة في الأنساق الثقافية العربية"، المركز الثقافي العربي، ط 3، الدار البيضاء، المغرب، 2005، ص: 59.

[4] - المرجع نفسه، ص: 20.

[5] - المرجع نفسه، ص: 79.

[6] - ينظر: عبد الكريم شرفي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة، الدار العربية للعلوم، ط 1، بيروت، لبنان، 2007، ص: 162.

[7] - ينظر: بشرى موسى صالح: نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، ط 1، الدار البيضاء، المغرب، 2001، ص: 45.

[8] - محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة، د. ط، القاهرة، د. ت، ص: 03.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[9] - ينظر: محمد الأشهب: التلقي المكاشف شروطه وحدوده (ابن عربي نموذجا)، مجلة علامات، ع 10، 1998، ص: 68 -69.

[10] - المرجع نفسه، ص: 15.

[11] - آمنة بلعلى: الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي (من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، د. ط، دمشق، 2001، ص: 27.

[12] - المرجع نفسه، ص: 20.

[13] - عادل محمود بدر: التأويل الرمزي للشطحات الصوفية، دار مصر المحروسة، ط 1، القاهرة، 2010، ص: 11.

[14] - ابن منظور: لسان العرب، ج 1، "مادة أول"، دار لسان العرب، د. ط، بيروت، د ت،ص: 131.

[15] - خالد عبد العزيز السيف: ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، مركز التأصيل للدّراسات والبحوث، ط 1، السعودية، 2010، ص: 34.

[16] - ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 3، دار صادر، بيروت، لبنان، 2004، ص: 453.

[17] - فارس عبد الله بدر الرحاوي: "الخطاب الصوفي (دراسة في اشكاليات التلقي)"، مجلة التربية والعلم، مج 2، ع 1، العراق، 2012 ، ص: 312.

[18] - آمنة بلعلى: الحركة التواصلية فبي الخطاب الصوفي، ص: 30.

[19] -المرجع نفسه، ص: 32.

[20] - المرجع نفسه، ص: 40.

[21] - عبد الله خضر: التصوف وفضاءات التأويل قراءة نقدية، ط 1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2017، ص: 71.

[22] - ابن عربي: رسالة كشف الستر لأهل السرّ، دار الكتب العلمية، ط 1، 2004، ص: 222.

[23] - المرجع نفسه، ص: 74.

[24] - الحلاج: ديوانه، تح: مصطفى الشربي، دار أفاق عربية، بغداد، 1984، ص: 59.

[25] - ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي: لسان الميزان، تح: محمد بن عبد الرحمان المرعشلي، دار احياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، ط 1، لبنان، 1416، ص: 310.

[26] -.ابو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، تح: عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، دار الشعب، القاهرة، 1989، ص: 50.

[27] - الكلاباذي: التعرف لمذهب اهل التصوف، دار صادر، ط 1، بيروت، 2001، ص: 44.

[28] - آمنة بلعلى: الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي، ص: 27.

[29] - محمد جلال شرف: دراسات في التصوف الاسلامي شخصيات ومذاهب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د ط، بيروت، 1984، ص: 241.

[30] - ينظر: نصر حامد أبو زيد: هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، ط 2، الدار البيضاء، 2004، ص: 90.

[31] - ابن عربي: ذخائر الأغلاق شرح ترجمان الأشواق، مطبعة الأنسية، بيروت، 1213، ص: 05.

[32] - ينظر: نصر حامد أبو زيد: فلسفة التأويل، ص: 383.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

[33] - ينظر: ابن عربي: الفتوحات المكية، ص: 334-524.

[34] - آمنة بلعلى: الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي، ص: 81.

[35] - الطوسي، أبو نصر اليارج: اللمع، تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الله سرو، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المتنبي، بغداد، 1960، ص: 414.

(9)- قائمة المصادر المراجع:

ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، لسان الميزان، دار احياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، لبنان، 1416.

ابن عربي: ذخائر الأغلاق شرح ترجمان الأشواق، مطبعة الأنسية، بيروت، 1213.

ابن عربي: الفتوحات المكية، ج 3، دار صادر، لبنان، 2004.

ابن عربي: رسالة كشف الستر لأهل السرّ، دار الكتب العلمية، 2004.

ابن منظور: لسان العرب، ج 1، "مادة أول"، دار لسان العرب، بيروت، د. ت.

أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، دار الشعب، القاهرة، 1989.

أمينة بلعلى: الحركة التواصلية في الخطاب الصوفي (من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجريين)، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، 2001.

آنا ماري شميل: الأبعاد الصوفية في الاسلام وتاريخ التصوف، منشورات الجيل، بغداد، 2000.

بشرى موسى صالح: نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2001.

الحلاج: ديوانه، دار أفاق عربية، بغداد، 1984.

خالد عبد العزيز السيف: ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، مركز التأصيل للدّراسات والبحوث، السعودية، 2010.

سمير الخليل: دليل مصطلحات الدراسات الثقافية والنقد الثقافي، الكتب العلمية، لبنان، د. ت.

الطوسي، أبو نصر اليارج: اللمع، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1960.

عادل محمود بدر: التأويل الرمزي للشطحات الصوفية، دار مصر المحروسة، القاهرة، 2010.

عبد الرحمان قاسم: "أصالة الخطاب الصوفي الاسلامي"، مجلة الخطاب الصوفي، ع 6، جامعة الجزائر.

عبد الكريم شرفي: من فلسفات التأويل إلى نظريات القراءة ،الدار العربية للعلوم ، لبنان، 2007.

عبد الله الغذامي: النقد الثقافي "قراءة في الأنساق الثقافية العربية"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2005.

عبد الله خضر: التصوف وفضاءات التأويل قراءة نقدية، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2017.

فارس عبد الله بدر الرحاوي: "الخطاب الصوفي (دراسة في اشكاليات التلقي)" ، مجلة التربية والعلم، مج 2، ع 1، العراق، 2012.

الكلاباذي: التعرف لمذهب اهل التصوف، دار صادر، بيروت، 2001.

محمد الأشهب: التلقي المكاشف شروطه وحدوده (ابن عربي نموذجا)، مجلة علامات، ع 10، 1998.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

محمد جلال شرف: دراسات في التصوف الاسلامي شخصيات ومذاهب، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1984.

محمد عبد المنعم خفاجي: الأدب في التراث الصوفي، دار غريب للطباعة، القاهرة، د. ت.

نصر حامد أبو زيد: هكذا تكلم ابن عربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2004.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com